

## نظرات في الشعر الجاهلي

- ١ -

### الشاعر الجاهلي في مواجهة الموت

د. إحسان النص

موضوع الموت شغل منذ القديم الفلاسفة والحكماء والعلماء والشعراء، نظر إليه كل منهم من الزاوية التي تتعلق به، وتفاوتت نظرات هؤلاء إلى الموت ومحاولتهم التغلغل في كنهه.

والموت هو حقيقة الحقائق في هذا الوجود، ومنذ اللحظة التي يسجل فيها الكائن الحي وجوده في سجلّ الجماعات البشرية يقف له الموت بالمرصاد، ويغدو هاجس الكائن الحي الملازم لوجوده.

على أن الموقف من هذا المصير المحتوم يختلف من إنسان إلى آخر، يستقبله المؤمنون بالرضا والتسليم لمشئمة الله، ويرون فيه انتقالاً من دنيا فانية إلى أخرى باقية، ويستقبله آخرون بإذعان ولكن على كره منهم لأنهم لا يقوون على مغالبتة.

والشعراء الجاهليون متفقون في أن الموت هو المصير المحتوم للكائن الحي، ولكنهم يختلفون في موقفهم منه باختلاف نفسيتهم وعقيدتهم، يستقبله بعضهم والجزع يملأ قلبه، ويستقبله آخرون بروح التحدي واللامبالاة.

وأول من نقف عنده من شعراء الجاهلية الذين كان لهم موقف من الموت في شعرهم طرفة بن العبد. وهو من عشيرة ضبيعة البكرية، ونرجح أن تكون النصرانية انتشرت في بعض القبائل البكرية، وفي شيبان خاصة. وكان طرفة

يمثل في عصره فتوة الشباب والإقبال على لذائذ الحياة في مجتمع ليس لأفراده أهداف واضحة يعيشون من أجل تحقيقها، باستثناء من كانوا على النصرانية التي تجعلهم يخضعون لتعاليمها، ومنها الإيمان باليوم الآخر.

كان طرفة يرى أن أمورًا ثلاثة تستحق أن يعيش المرء من أجلها، ولولاها لما حفل بمقدم المنية، وهذه الأمور الثلاثة هي: معاقرة الخمر، ومعاشرة النساء، والدود عن القبيلة، والأمران الأولان هما من الملهذات الحسنية، أما الأمر الثالث فهو معنوي يمثل القيم القبلية العليا. فالدفاع عن القبيلة وتلبية دعوة المستحير بها يمثلان التزامًا قبليًا لا يتخلى عنه أحد من أبناء القبيلة الأحرار. وقد أعلن طرفة في معلقته تشبته بهذه الأمور الثلاثة، ولولاها لما عبأ بمجيء المنية قال:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى      وجدك لم أحفل متى قام عؤودي  
فمنهن سبقي العاذلات بشرية      كُمت متى ما تُعل بالماء تُزبد  
وتقصيرُ يوم الدجن والدجنُ معجب      بيهكنة تحت الطراف المعمد  
وكري إذا نادى المضاف مُحبًا      كسيد الغضا ذي السورة المتورد<sup>(١)</sup>

فالحياة لامعنى لها في نظر طرفة إذا خلت من هذه الأمور الثلاثة، وقد استخلص من تجاربه في الحياة، مع قصر حياته، حكمًا فطرية في تصوير الموت، فهو نهاية حتمية لا معدى عنها للمرء، والخير كل الخير أن يسبق المرء وقوعه في محالب المنية بالاستمتاع بملذات الحياة. وكان قومه يلومونه على حياته هذه العابثة وإنفاقه المال في تعاطي الخمر والإقبال على الملهذات، فكان يرد عليهم بقوله:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى      عقيلة المال الفاحش المتشدد

(١) معلقة طرفة بن العبد ص ٣٢ وما بعدها.

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطَّوَلِ المرخى وثنيه في اليد  
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادزها بما ملكت يدي<sup>(١)</sup>  
تلك هي (فلسفة) طرفة في نظرتة إلى الموت، وليس في شعره ما ينبئ بأنه  
كان يؤمن برجعة بعد الموت وحياة أخرى بعد الحياة الدنيا.

\* \* \*

ونقف لدى شاعر جاهلي آخر هو أعشى بكر ميمون بن قيس، فنجده  
يرى أن في طول الحياة عناءً، والموت بالمرصاد للمرء مهما يطل به الزمن، شابًا  
كان أو مُسِنًا:

لعمرك ما طولُ هذا الزمنِ على المرء إلا عناءٌ مُعِرٌّ  
يظلّ رجيماً لريب المنون وللستّم في أهله والحزن  
ما إن أرى الدهر في صرفه يغادر من شارخٍ أو يفن  
فهل يمنعني ارتيادي البلا د من حذر الموت أن يأتين  
وهو يستشهد بمن غالته أيدي المنون من الملوك الغابرين:

أزال أذينة عن مُلكه وأخرج من حصنه ذا يَزَنُ<sup>(٢)</sup>

وهو يقف من الموت وقفة عدم المبالة ويرى أن ليس في موته عار:

أبا الموت خَشْتَنِي عُبَادٌ وَإِنَّمَا رَأَيْتَ مَنَايَا النَّاسِ يَسْعَى دَلِيلُهَا  
فَمَا مَيِّتَةٌ إِنْ مُتُّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسُ غَوْلَهَا<sup>(١)</sup>

(1) معلقة طرفة بن العبد ص ٣٢ وما بعدها.

(2) شرح ديوان الأعشى، ص ٢٠٦، اليفن: الشيخ الهرم.

وللشاعر المخضرم بين الجاهلية والإسلام عبدة بن الطبيب أبيات وجهها  
إلى أهله وأخبرهم فيها أنه ينتظر قدوم المنون، لأن حياة المرء إلى انقضاء فلا  
جدوى إذًا من جمع المال، فالمرء يسعى جاهدًا في جمعه ثم تدركه منيته فلا يجني  
شيئًا مما جمعه:

ولقد علمت بأن قصري حفرة      عبراءٌ يحملني إليها شرَّجُ  
فبكي بناي شجوهنّ وزوجتي      والأقربون إليّ ثم تصدّعوا  
وتُركت في غبراء يُكره وردها      تسفي عليّ الرّيح حين أودّع  
إن الحوادث يحترمن وإنّما      عُمر الفتى في أهله مستودع  
يسعى ويجمع جاهدًا مستهترًا      جدًا وليس بأكلٍ ما يجمع  
حتى إذا وافى الحمام لوقته      ولكلّ حنّب لا محالة مَصْرَع  
نبدوا إليه بالسلام فلم يُجب      أحدًا وصمّ عن الدّعاء الأسمع<sup>(١)</sup>

\* \* \*

ويقف الشاعر المخضرم متمم بن نُويرة من الموت وقفة المدعن لمصيره  
المحقّق، وقد أهلك الدهر قبله قوم عاد وآل محرق، فهو يستقبل مصيره غير  
جازع:

ولقد علمت ولا محالة أني      للحادثات فهل تريني أجزعُ  
أفنين عادًا ثم آل محرق      فتركنهم بلدًا وما قد جمّعوا  
فعددت آبائي إلى عرق الثرى      فدعوهم فعلمت أن لم يسمعوا

(1) المصدر السابق ص ١٣٧.

(2) المفضليات، المفضلية ٢٧، ص ١٤٥.

لا بُدَّ من تلفٍ مُصيبٍ فانتظر      أبأرض قومك أم بأخرى المصرع  
ولياتين عليك يومٌ مرّةً      يُيكى عليك مقلّعا لا تسمع<sup>(١)</sup>

\* \* \*

والشعراء الصعاليك كانوا ممن لا يحفلون بالموت إذا غالهم، وهم مستهدفون  
في غاراتهم المتصلة، فنسمع الشنفرى يقول:  
أذا ما اتني ميتي لم أبأها      ولم تُذر خالاتي الدموع وعمّتي  
ولو لم أرم في أصل بيتي قاعدًا      إذا جاءني بين العمودين مُحمّتي<sup>(٢)</sup>  
والشاعر عروة بن الورد الذي عرف بعروة الصعاليك وقف من المنية كذلك  
وقفه المدعن للقدر، فليس عن المنية متأخر:

فإن فاز سهم للمنية لم أكن      جزوعًا وهل عن ذاك من متأخر  
فذلك إن يلق المنية يلقها      حميدًا وإن يستغن يومًا فأجدير<sup>(٣)</sup>

\* \* \*

وبمثل هذا الإذعان للقدر يستقبل الشاعر الأسود بن يعفر منيته وقد غالت  
قبله الملوك والقبائل:

ولقد علمت سوى الذي نبأني      أن السبيل سبيل ذي الأعواد  
إن المنية والحتوف كلاهما      يُوفي المخارم يرقبان سوادي

(1) المفضلية (٩).

(2) المفضلية (٢٠)، وشعر الشنفرى ص ٩٩ .

(3) الأصمعيات، الأصمعية (١٠).

ماذا أوْمَل بعد آل محرَّق تركوا منازلهم وبعد إِياد  
 جرت الرياح على مكان ديارهم فكأثَّهم كانوا على ميعاد  
 أين الذين بَنَوْا فطال بناؤهم وتمتَّعوا بالأهل والأولاد  
 فإذا النعيم وكلُّ ما يُلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفاد<sup>(١)</sup>

\* \* \*

وحيث فُجِع أبو ذؤيب الهذلي بمصرع أبنائه الخمسة، لم يفقد قدرته على  
 التجلد والصبر على المصاب لئلا يشمت به الشامتون، مع ما أحسنَّ به بعد  
 فقدهم من حزن غامر، وقصيدته هذه من عيون الشعر الجاهلي في هذا المعنى،  
 ومنها قوله:

أودى بني فأورثوني عُصَّةً بعد الرُّقاد وعبرةً ما تُقلِّع  
 فغيرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أي لاحقٍ مستتبع  
 وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كلَّ تميمة لاتنفع  
 وتجلدي للشامتين أريهم أي لرب الدهر لا أتضعض<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

وحيث فقدت سُعدى بنت الشمول الجُهنية أخاها في وقعة مع بني سليم  
 قالت في رثائه قصيدة تذكّر بقصيدة أبي ذؤيب، والقصيدتان تتشابهان في  
 الوزن والقافية والمعاني، ومنها:

إن الحوادث والمنون كلاهما لا يُعتبان ولو بكى من يجزُّع

(١) المفضلية (٤٤).

(٢) المفضلية (١٢٦).

ولقد علمت بأنّ كلّ مؤخّر يوماً سبيلَ الأولين سيتبع  
 ولقد علمت لو ان علمي نافع أن كلّ حيّ ذاهب فموذّع  
 أفليس فيمن قد مضى لي عبّرة هلكوا وقد أيقنت أن لن يرجعوا  
 كم من جميعي الشّمل ملتثمي الهوى كانوا كذلك قبلهم فتصدّعوا<sup>(١)</sup>

\* \* \*

على وفرة ما قالته الخنساء في رثاء أخويها صخر ومعاوية، قلّما نجد لها شعراً يدور حول الموت وأفاعيله؛ فهي لم تستقبل مصرع أخويها بالصبر والتأمل في أحداث الدهر واستخراج العبر منها، وإنما استقبلته بالجزع والبكاء وتعداد مناقب أخويها، شأن أكثر النساء، فهي كما وصفها بعضهم نواحة مدّاحة، وفي ديوانها أبيات تقرر فيها حتمية الموت، واصطفاه أشرف الناس، فتقول:

مالذا الموت لا يزال مُخيفاً كلّ يوم ينال منّا شريفاً  
 مُولعاً بالسّرة منا فما يأخذ إلاّ المهذب الغطريفاً  
 فلو ان المنون تعدل فينا فتنال الشريف والمشروفاً  
 كان في الحقّ أن يعود لنا الموت وأن لا نسومه تسويفاً<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

(١) الأصبعية (٢٧).

(٢) شرح ديوان الخنساء، ص ٩٥ .

أما زهير بن أبي سلمى فقد عرض في معلقته (فلسفته) في موضوع الموت،  
لقد عاش حتى بلغ ثمانين حولاً، فأحسّ بالسأم من الحياة وضاق بتكاليفها:  
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لأبالك يسأم  
والمنايا تخبط خبط ناقة عشواء، فمن أصابته لقي منيته، ومن أخطأته عمّر دهرًا:  
رأيت المنايا خبط عشواء من تُصب ثُمته ومن تخطئ يعمر فيهرم  
ولا مفر من لقاء المنية ولو حاول المرء الفرار منها بارتقائه أسباب السماء:  
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسئم<sup>(١)</sup>  
وهو يؤكد رؤيته لختمية الموت في موضع آخر فيقول:  
ترؤد إلى يوم الممات فإنه وإن كرهته النفس آخر موعداً<sup>(٢)</sup>  
وثمة قصيدة نسبها بعض الرواة إلى زهير - وهي في ديوانه - ونسبها  
آخرون إلى صرمة بن أبي أنس الأوسي، وهو شاعر مخضرم عاش طويلاً وأدرك  
الإسلام فأسلم، والراجح عندي أنها لصرمة لأن فيها معاني إسلامية، يقول:  
إلى حفرة أهوي إليها مقيمة يحث إليها سائق من ورائيا  
ألا لا أرى على الحوادث باقياً ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا  
ألم تر أن الله أهلك تُبعاً وأهلك لقمان بن عاد وعاديا  
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى وفرعون أردى جنده والنجاشيا<sup>(٣)</sup>

(1) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٢٩.

(2) المصدر السابق ص ٢٣٦.

(3) المصدر السابق ص ٢٨٤.

إذا استعرضنا كل ما قاله شعراء الجاهلية في مواجهة الموت لم نجد منهم أحدًا يذكر البعث بعد الموت، فالموت هو مغادرة هذه الدنيا، وبلا عودة بعده إلى حياة أخرى، وهذا الموقف متوقع من الشعراء الوثنيين، فليس في عقيدتهم إيمان بمبعث المرء بعد موته. ولكن ما موقف الشعراء المسيحيين من هذا الأمر؟ لقد عدت إلى شعر عدي بن زيد العبادي النصراني فما وجدت له شعرًا يذكر فيه بعثًا للموتى، وموقفه من الموت لا يختلف عن موقف الشعراء الآخرين، فهو المصير المحتوم الذي ينتظر الأحياء جميعًا، وقد تحدث عن هذا المصير في كثير من قصائده، وحسبنا إيراد نموذج واحد من شعره في هذا الموضوع وهو قوله:

أيّها الشامت المعير بالدهر أنت المبرأ الموفور  
 أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهل مغرور  
 من رأيت المنون خلّدن أم من ذا عليه من أن يُضام خفير<sup>(١)</sup>  
 بيد أن هناك شاعرًا واحدًا كان معاصرًا للنبي ﷺ نجد في شعره نظرات تحاكي ما في الآيات القرآنية، وهو أمية بن أبي الصلت الثقفي. ولما ظهر الإسلام لم يُسلم، والراجح أنه كان على دين الحنيفية، دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان ممن حرّم على نفسه عبادة الأوثان وشرب الخمر، فنجد في شعره تأكيدًا لحتمية الموت، شأن الشعراء الآخرين، نحو قوله:

كل عيش وإن تطاول دهرًا صائر مرّة إلى أن يزولا  
 فاجعل الموت نُصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا<sup>(١)</sup>

(1) الأغاني للأصفهاني، ج ٢ / ١٣٨ .

وكل ما في الوجود هالك غير وجه الله:

ألا كل شيء هالك غير ربنا      والله ميراث الذي كان فانيا  
 وإن يك شيء خالداً ومعمراً      تأمل تجد من فوقه الله باقياً<sup>(٢)</sup>  
 ولكنه يضيف إلى ما قاله الآخرون إيماناً بالبعث والحساب والعقاب يوم القيامة:  
 يُوقف الناس للحساب جميعاً      فشقيّ معدّب وسعيد<sup>(٣)</sup>  
 وقد أغار على بعض ما ورد في الآيات القرآنية.

ولما ظهر الإسلام دخل فيه جلّ من عاصره من شعراء الجاهلية المخضرمين،  
 وآمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام. ولكن بقي نفر قليل منهم لم يدخل  
 الإيمان قلوبهم، وأنكروا مبعث الموتى يوم القيامة. وقد ذكر القرآن إنكار  
 الوثنيين للبعث ومنه قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَّانَا لِمُبْعوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا \* قُلْ كُونُوا  
 حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا \* أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ  
 الَّذِي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ (الإسراء ٤٩ - ٥٠).

ومن الشعراء الذين عاصروا رسول الله ﷺ ولم يؤمنوا برسالته وأنكروا البعث  
 والحشر، الشاعر شدّاد بن الأسود بن عبد شمس، فيقول في قصيدته التي رثى  
 بها قتلى قريش يوم بدر:

يحدّثنا الرسول بأن سنحيا      وكيف حياة أصداءٍ وهام<sup>(١)</sup>

(1) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص ٤٥٠ .

(2) المرجع السابق ص ٥٢٨ .

(3) المرجع السابق ص ٣٧٩ .

وينسب إلى زهير بن أبي سلمى بيتان يصرّح فيهما بإيمانه بالبعث والحشر فيقول:

فلا تَكْتُمَنَّ اللهُ ما في نفوسكم ليخفى، ومهما يُكْتَم اللهُ يُعْلَمُ  
يُؤَخَّرُ فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يُعَجَّلُ فينقم<sup>(٢)</sup>  
ومن الباحثين من يشك في صحة نسبة هذين البيتين إلى زهير، وهو وثني،  
وفي المعلقة بيت يقسم فيه بالبيت:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجالٌ بنوه من قُرَيْشٍ وجرهم<sup>(٣)</sup>  
فهو يقسم هنا بالكعبة حين كانت معبدًا وثنيًا.

وخلاصة القول أن جمهور شعراء الجاهلية كان يؤكّد في شعره حتمية الموت  
وكان يرى فيه نقطة النهاية لكل كائن حي، فليس في عقيدة الجاهليين الوثنيين  
إيمان بعودة الموتى إلى الحياة، ولا يشذ عن هؤلاء الشعراء إلا شعراء النصارى  
واليهود والحنيفية، على أننا لم نجد إلا أشعارًا قليلة في هذا الشأن للشاعر أمية  
بن أبي الصلت.

\* \* \*

(1) سيرة ابن هشام ٢٩/٢ .

(2) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٨ .

(3) المصدر السابق ص ١٤ .

### مصادر البحث

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الأصمعيات تح. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة ١٩٥٥
- ٣- الأغاني للأصفهاني، ج ١٤ ص ٢٦٣.
- ٤- ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب المصرية، شرح ثعلب، القاهرة ١٩٤٤.
- ٥- ديوان طرفة بن العبد. تح. درية الخطيب ولطفي الصقال، دمشق ١٩٧٥ .
- ٦- ديوان عدي بن زيد العبادي.
- ٧- ديوان عمرو بن الورد، بشرح ابن السكيت، تح. عبد المعين ملوحي، دمشق ١٩٦٦.
- ٨- ديوان علقمة الفحل، جمع. أحمد الصقر، القاهرة ١٩٣٥.
- ٩- السيرة النبوية لابن هشام تح. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة ١٩٥٥.
- ١٠- شرح ديوان الأعشى، بيروت ١٩٦٨.
- ١١- شرح ديوان الخنساء، تح لويس شيخو، بيروت ١٨٩٥.
- ١٢- شعر الشنفرى، تح. علي ناصر غالب، الرياض ١٩٩٨.
- ١٣- المعلقات العشر. تح. أحمد الشنقيطي، القاهرة ١٣٥٣هـ.
- ١٤- المفضليات، تح. أحمد شاكر وعبد السلام هارون القاهرة ١٩٥٢.